

الكتابة في درجة الغليان

جئت اروي نصتي (X) ، لوسع دائرة العلاقة . هل هذا ممكن ؟

محاولة . ولكن هذه المحاولة ذاتها هي سيرة الادب .

ان تسألني : من أنت ؟ دفعة واحدة ، معناه ان نضعني في حالة الارتباك التي توسع دائرة الفارق . ولكن الادب ، لانه يروي قصة الانسان ، يتجاوز هذه الصعوبة . كانه يتابع حوارا سابقا . وكأنه على ما يبدو سعي انساني مشترك ومتنوع للوصول ، عبسرسياقات مختلفة ، الى اقرب منطقة من التجريد .

لم تصل الى هذه المنطقة بعد ، لان الحالة الكونية ليست واحدة ، ولان تفاصيل وضايا وجودنا متفاوتة ، ولان اللغة الواحدة ما زالت تبحث عن تكوينها عبر صراعات متعددة الاشكال والمستويات . وما زالت قضايا امتلاك الانسان لصفاته واختياراته فيد الصراع . ومع ذلك ، يظل الادب طوحا الى تجسيد المشترك من قضايا الانسان ، لاقامة الصلة الانسانية .

انني لا اكتب لاي عيش ، ولا اعيش لكتب . انني اكتب لكون حاضرا . وان هذا الالحاح الى الحضور توق حيوي للتجانس مع الحضور الانساني الشامل ، ومع الحياة ذاتها .

لم نحضر جميعا . لماذا لم نحضر ؟ لماذا لم نحقق الانسجام المنشود ؟ ان لكل منا قصة ، وتاريخا ، ومحاولة . ولعل قصصنا ومحاولاتنا ، نحن ابناء شعوب اسيا وافريقيا ، اكثر الحاصلات الانسانية تشابها . فما زالت شعوب كثيرة في فارتينا موضوعة خارج المشاركة الابداعية في تشكيل حياتها كما تشاء وفي التأثير الفعال على مضمون العصر ولفته . وما زالت مدفوعة الى مجابهة التحدي الخارجي الذي يأخذ تجليات شديدة السلبية في الداخل . وما زالت الامبريالية احد ابرز المعوقات التي تصرفنا عن الانصراف الاكمل نحو اختبار قدراتنا على ابداع حياتنا الجديدة وثقافتنا المتحررة والحررة .

ما هي قصتنا ؟

ان التحرر والحرية هما الجوهران الاساسيان اللذان يتمحور حولهما نشاطنا الادبي في بلادنا الواسعة . هذه هي القصة التي

(X) كتب الشاعر هذه المقالة لندوة في طوكيو دعا اليها اتحاد الكتاب اليابانيين تعبيرا عن تضامنه مع الكتاب العرب وعقدت في ٢٥ حزيران حتى ٥ تموز ١٩٧٤ .

نرويها في كتابتنا وتشاطنا العملي . وان التحدي الكبير يعيق ولادتنا الجديدة من جهة ، ويصوغها من جهة اخرى . ففي سعينا الى التحرر عبر الصراع نحرر ذاتنا مما تراكم عليها من مظاهر القديم الذي لم يعد صالحا ، ومن « الجديد » الذي يريد التحدي الاجنبي فرضه علينا لبعث الحياة في القديم الذي لا ينفع . لقد عثرنا على انفسنا في حالة اغتراب . كيف حدث ذلك ؟ ومتى حدث ؟ ليس مهما هذا السؤال . الاكثر اهمية هو ان نعي هذه الحالة ، لان ادراكها يحدد نقطة التقاطع بين اتجاهات واختيارات . كيف نعيد الالفه بين الجنور والاماد ؟ كيف نكون كما نريسد ان نكون ؟ كيف نفتصب الحياة من الذين اغتصبونا من الحياة ؟ كيف اكون انا وانت وانت وانا ، وصوتي صوتك ؟

كانت الارض .. كان المكان ، ولا يزال عندنا ، اكثر من علاقة امتلاك ، واكثر من وراثة لا دخل لنا بها . الارض العربية ، التربة العربية ، المكان العربي كاد يتحول - بسبب تحدي فرض - الاغتراب بينه وبين انسانيه - الى اختيار درامي .. والى اختبار الارادة والجدارة . صرنا نساءل : هل نحن جديرون بهذا التراب ؟ من هنا تبدأ نطفة الوجه العربي الجديد . والهجرة التي ترونها كثيرة في الادب العربي الحديث ليست وداع الراحلين لارض كفت عن اعطائهم هويتهم وخبزهم ، انها - الهجرة - مسيرة البحث العربي عن الارض التي تختصر من ايديهم واجسادهم . انه السفر الذاتي العنيف الى اعادة صياغتها كما تحدها الارادة الحرة . لم نألف الغزو ولم نسلم بشرعيته - كما حدث لغيرنا - لاننا لا نؤرخ واقعة وقعت . اننا نواصل الصراع في الواقعة التي تتعدد اسمائها ويتحدد جوهرها .. الاحتلال العثماني دام اربعة قرون . وقد استطاع ان يجرّد العربي من مواصلة الانبعاث او اعاقه استمرار دوره في التاريخ . ولكن ارادة شعوبنا التي تعيش في الغة المكان الواسع ساهمت في كسر هذا الظلام ، لتواجه صراعا اخر مع الاستعمار البريطاني والفرنسي والايطالي ، فالصهيوني .

من نحن ؟ اننا لا نكتب في درجة الصفر . اننا مولودون في درجة الغليان . ان الانسان العربي الجديد الذي لم تكتمل ولادته ، مازال يحاول - بجهد خلاق لا حد له - الوصول الى الولادة في قرون من المخاض الطويل . لقد عاش قرونه الاخيرة في صراع الغزو مع المحتلين الاجانب - بجيوشهم تارة ونفوذهم تارة وثقافتهم تارة - ليخرج من دائرة الاغتراب بينه وبين تاريخه .. بينه وبين مكانه ..

المكان العربي مليء بالرموز التي تسجل هذا الصراع في منطقتنا التي يسيل عليها لعاب الغزاة في التاريخ البعيد والقريب : حصون وقلاع وكتابة على الحجر ، توظف زمن الصراع المتشابه بين الامس والغد : طريق الشام التي أصبحت رمز الهداية غطت اعشابها آثار الرومان ، واثار الغزاة الجدد . ورسائل المقاتل المصري في العريش تسجل اصراجه على حذف المحتل القديم ، وتواصل الان تسجيل الصراخ على طرد الغزو الجديد . والانسان المصري الذي كتب الخلود على الصخر يواصل تسجيل الإرادة على الرمل والفولاذ . والمسيح المصلوب في فلسطين غير طريقته في نشر المحبة والنور الى العالم: ترّجل عن صليبه ليقاوم محاولة تجديد الصلب . وما زالت غابات الزيتون الفلسطينية الشهيرة بمعاني السلام تتطابق مع مضمون الكفاح الفلسطيني من أجل السلام . وما زالت الصخرة التي اطاعت محمد وافقة بين الارض والسلام في القدس لتشرح مضمون الطموح العربي الاصيل .

لم يكرر التاريخ نفسه . ولكن تاريخ الغزو ما زال حاضرا في المكان العربي . من هنا ، اننا نكتب في درجة الغليان . اننا نواصل محاولة الحضور الى الارض ومنها كما نريدها . . والى الذات كما نحررها . والى العصر كما يعاملنا . ومن هنا ، يتطور المحتوى الاساسي لادابنا الحديثة . انه ادب محاولة الحضور الذي يأخذ شكل المقاومة ، لان الاطراف الثانية من الصراع أرغمتنا على تحديد طريقة اختبار الجدارة بالصراع . واولى حالات هذا الحضور في المكان المحدد .

ان حائط الاغتراب الذي اقامه التحدي والغزو الخارجيان آخذ في الانهيار ، ولكن اثاره او بعض اثاره ما زالت باقية فينا وفي مكاننا .

ان نعلن ونصرخ باننا عرب ليس مباحة بورائة وليس نفيا للغير . انه شكل من اشكال محاولة نفي ما يتفينا . انه مدّ لتجديد حضورنا في التاريخ وفي الذات معا . لقد واجهنا الوقعة بيننا وبين البنيوع . . بيننا وبين اسمائنا . لقد تعرضنا لمحاولات سحق، اخذ احد اشكالها هذه التجزئة الباقية للشعب العربي الواحد في الوطن العربي الواحد . ان العالم يسعى نحو الوحدة ، وحدة الأمة، ووحدة الجنس البشري . وهذا العالم الرأسمالي الغربي المدجج بالسلاح والعمالة والنهم يشترط وحدته بتفتيت شعوبنا ، للحيلولة دون مساهمتنا في بناء العصر ، كجزء من محاربه العرب والاسيويين بشكل عام ، ليقب على سطوته السياسية والاقتصادية والثقافية ، ولتبقى شعوب اسيا خارج منطقة التأثير في العصر ، محصورة في مساحة التائر الذي ينتقيه الغرب : سوقا لاستهلاك منتجات الحضارة الاستهلاكية ، وادب النموذج الغربي .

الخروج من الاغتراب يعني الخارج والداخل معا . لان اثار الخارج الذي ما زال موجودا تمتد الى الداخل الذي ما زال شبه ممزق . ممزق بأفة الاستلاب وبكثير من مظاهر الركود التي الفت هذا الاستلاب ، وهي مفاهيم وقيم تمّ التعاون المباشر او الضمني على سيادتها بين العدو الخارجي وحليفه الداخلي . ان الاعداء ، دائما، لا يحملون الهدايا لضحاياهم . وثقافة « العالم الاول » المؤسسة - العالم الذي يحارب مداراة الشعوب للشقاء على ادنى مستوى من الرفض ، تحاصر الاديب العربي الثوري باختبارين شاقين ناجمين عن حالة رد الفعل ، لا الفعل . وهما : الرفض الكلي للثقافة البرجوازية الغربية ، او اللجوء الكلي الى الثقافة القومية الماضية بكل عناصرها . وكلا الاختيارين قادر على ابقاء الاديب العربي في حالة اللاتلاؤم مع طموحه الى اصطياد لحظة الزمن النشط . ولعل ضيق هذا الاختيار واحد من اهم عذابات الاديب العربي

في بحثه عن مكانه ودوره في تضييق المساحة بين التخلف والتقدم . هنا تطرح مشكلة الاصاله والتقليد . والثقافة الغربية تلج على ان يكون بديل رفضها عودة الى النسخ عبر زمن الموات الذي توقفت فيه ثقافتنا عن التجدد . وقد تكون اصلح الوسائل للخروج من هذه المحاصرة رفض الاختيار الناتج عن دائرة رد الفعل واندفاع السلب ، بفعل بناء يهدم ما « تجده » سلبية رد الفعل مسن بدائل . ولعل هذا الفعل البناء يقتضي رفض الخضوع لكليّة الثقافة المسيطرة البرجوازية ورفض الخضوع التام لعرفية ثقافتنا الماضية التفصيلية ، لان بعض محتوياتها لم يعد قادرا على انقاذنا الايجابي من تحديات العصر ومتطلبات نمونا . هل يعني ذلك ان نرفض كل ما قدمه سوانا من ثقافة قومية لامت درجة تطوره ؟ كلا ، ان بعض جوانب الثقافة قد تجاوز صدفته القومية ليذوب مسهما في عملية الابداع الانساني الشامل بعدما انفصل عن مبدعه . هكذا تفنسي الثقافات والاداب ، بمساهمات شتى الشعوب في اثرها ، جانب المطلق من قيم الانسان . ومن هنا ، يكون رفضنا لا يفرض علينا من الخارج او من الماضي - وهو شكل من اشكال الخارج - تجليا من تجليات المساهمة في الابداع الانساني .

وان الشرط لهذا المستوى هو ان نحرر ثقافتنا القومية من محاولات طمسها الخارجية ومن محاولات تحنيطها الداخلية . وهن هنا ، حين نصرخ باننا عرب فاننا لا نعبر عن غرور بقدر ما نبحت عن دور . . بقدر ما نستاذن العالم في الاعلان عن ان فينا ما يسهم في رفع مستوى انسانية الانسان . وفي الاعلان عن ان لدينا تجربة ذات خصوصية قومية نريد ان نضيفها للتجارب الانسانية ليزداد التسوع وتقل الفضيحة والسيطرة .

اننا لا نبشر الا بحقنا في ان نشارك بالحرية . كلما اتسعت الحرية كلما اتسع العدل ، وانطلقت التجارب للمشاركة في تغيير المصير الراهن للانسان . وان جرائم الامبريالية لا تعدد فقط بالنهب الاقتصادي وتشويه جسد الحرية . انها تحصى ايضا بالحيلولة دون مساهمة الطاقات الروحية لمائة مليون انسان ، كانوا ورثة حضارة من اغنى الحضارات ونقله حضارات غنية ، ودون تقديم خدماتهم الابداعية في اثناء الروح الانسانية .

دعونا نتكلم ! ماذا يحدث لو مارسنا حق الكلام ؟ سنوسع مساحة وطن الانسان . اليس هذا ما يفعله الابداع في اخر الامر ؟ هكذا نقيم العلاقة الانسانية .

اننا نشق طريقنا الى هذا الدور بجهد وعذاب ، عبر الحروب المفروضة علينا ، وعبر المجاعات ، وعبر الامية ، وعبر افتتاحيات الصحف الغربية التي تعاملنا نطقا لا بشرا ، وغيرها من الاسلحة الرامية الى الحيلولة دون بلوغ الشعوب حالة الانسانية الحقيقية . وان ادبنا الحديث هو نتاج هذا المخاض الطويل . ومفرداته تحمل هذه الاصوات . ان نحضر . . ان نحضر . هذا هو السؤال . وحين يعلن هويته القومية يسجل انتماءه الانساني بلفسة تفجر اغترابها وتتجدد . اننا ناتي الى العالم من سجن العالم الرسمي . دعوتنا لنا ولكم هي التغيير . كان شاعرنا القديم يشكو سوء الطالع . ونحن انتقلنا من الكائنات القديمة التي اعجبت مؤرخي الابداع الغربيين ، الى التغيير والتغيير .

نبحت عن حلم ؟ كلا !

نبحت عن بطل ؟ كلا !

اننا نبحت عن فاعلية . نبحت عن تجسيد . لم تكتمل ملامح وجه الابداع العربي الحديث بعده ، لانه ما زال يتكون وسط المعركة ، وما زال يخوض معارك تحدي الاخر واختبار الذات ، بما يرافقه من بلورة لسان جديد ، وموقف جديد ، ووجود جديد . لانه - باختصار

ما زال في مرحلة الانتقال من التبعية للماضي الذي انقطع ومن قيم ومفاهيم السيطرة الخارجية والداخلية الى التحرر الوطني والقومي . لقد تطورت اشكال النموذج : من الجاهز في التعاليم العامة ، الى الحالم ، الى الواقعي الميكانيكي ، الى الواقعي الناصد الى المقاوم والثوري ، الى ذوبان النموذج الفردي ومحاولة الاستفناء عنه وفقا لدرجة حركة الفاعلية . لم يعد الحلم فرديا ، لان نمو الصراع والمستويات وامتناد معارك التحدي وبلورة فكرة الانبعاث العربي جعلت الحلم جماعيا . حلم امة . وصار السعي لتطبيق الحلم اندي لا يسمى ، والذي حاولت السياسة ان تسميه بشعارات: «حرية وحدة ، واشتراكية ، » استقطابا لروح ثشرت قرونا . وكان البحث عن حدودها لايجاد مرتكزات هو مصدر التنوع الشاق في الاجتهادات العربية لتحديد وجهة السير نحو امتلاك المصير ، وهو ايضا مصدر التنوع المتناقض - احيانا - في اجتهادات الادباء لتحديد المحتوى الجديد لثقافة العربية القومية ، او تحديد المضمون الثوري الجديد للدعوة العربية ، ومكانتها في حركة شعوب اسيا وافريقيا ، وحركات التحرر في هذا العصر .

لا يسأل العربي نفسه : اكون ، ام لا اكون . لانه عميق الاحساس بالطمأنينة التي يخلفها المكان الواسع ، والتاريخ القديم ، والكنوز المادية والروحية الكبيرة . انه يسأل نفسه : كيف اكون ؟ ولعل هذا السؤال هو احدى الفاعليات التي يتمحور حولها نشاطه . وكيف اكون ؟ سؤال يتضمن اجابة فورية في بنية السؤال ذاته ، لانه يعني ادراك الحاجة الى التغيير ، والى الحدانة . التغيير هو الممارسة الذهنية والعملية التي يعيشها العربي اختبارا وتجربة واجتهادا . في الادب ، والادب الثوري اعني ، تحدث للواقع فضيحة ، يكشف بانه نقيضه وهو متآلفان . لقد حدث شيء ما بدل الواقع في الاحتمال . تلك هي ميزة الادب او دوره او مكانته في عملية التغيير .

في البداية ، لا اكتب شعرا لاغير الواقع . ولكن الواقع ارغمني على الكتابة . استمديني من سدة ما اذني ، من كثرة ما كان واقعا وذهت فيه . ولكن هذه العبودية منحتني الحرية ، فحين كتبت وجدته يخلف عن نقيضه ، ولكن نقيضه ليس الا هو متحولا . اي انه هو يمكن ان يكون هو بشكل افضل ، حين تدخل انا فيه . حين احمر انا بين هو وهو . وهذه هي وقتي الحرة . هذه هي علاقتي بمعادلة الواقع التي استخرج منها حريتي من جهة ، وقابلية الواقع للتحرر والتغيير من جهة اخرى .

متى حدث ذلك ، وكيف ؟ حين لم اكن شاهدا على الواقع ولا شهيد . فهل انا بينهما ؟ كلا . لان هذه الحالة شكل سخادع من اشكال المراقبة .

واجب الاديب هو وهمه . خاصة عندما يكون وهمه هو واجبه ، ولكن لهذا التناقض مغزى ودلالة خاصة حين يكون الاديب نتاج شعوب في مثل مستوى تطور او تخلف شعوبنا .

ليست له مثل فقيمتنا ذلك الشاعر الذي قال : اريد ان اغير العالم . كان سلاحه الى ذلك الذهنية او متعة التفرد في الهرب من دخان المصانع الى الازهار البرية بعدما الفت الكلاسيكية بعنادها ، وهرب الواقع من مقلباتها . كان طموح الشاعر « شاعريا » خالصا اذا جاز التعبير . ولكن الشاعر الثوري الجديد في اسيا وافريقيا ليس « شاعرا » بالمفهوم الرومانسي للكلمة .

ولكن ، ما اشد واقعية الشاعر الاسيوي - الافريقي ، في هذه المرحلة من مستوى تطور القارتين ، في تفاوته ، حين يندمج في هذا الوهم . ان هذا الوهم واجبه والتزامه السني لا ينتقيه كما تنتقى اللوحة او الاسطوانة . هذا ما يفعله به الواقع .

ليس بوسع الادب ان يغير الواقع الا فرديا . اي ليس بوسعه ان

يفيره للجميع . ولكن هذه الفتحة من التحول او الخرق السني يقود الى التحول تصبح ممرا جماعيا حين يندمج الشاعر - او لنقل يحلم - في حركة القوى القادرة على التغيير ، او حين يدمجها في عناصر الثورة . تحتاج المسألة الى فاعلية كل الاطراف . ولكن الاديب لا ينتظر هذه الفاعلية ، والا اندمج في الجمود .

هكذا ، اذن ، نعد المراحل : ليس بوسع الادب ان يغير العالم . ولكن يجب ان نضيف كلمة « وحدة » ، انه يغير « مع » سواء ، حين يجسد وهمه حلما شعبيا . انه في مرحلة الفاعلية السلبية يبشر بالتغيير . وفي مرحلة الفاعلية الايجابية يندمج نتاجه في قوى التغيير .

والادب العربي الحديث يمارس هذا الحلم - اذا جاز التعبير - ويسميه الثورة . ويبين الحلم واسم الحلم تعلقا كثيرة ، وحروب كثيرة ، وخيبات امل كثيرة ، ويكون الموت الذي لا يبيت . الموت - الاسطورة ، الموت الدال . هذا الموت الخاص يكاد ان يتحول - بعد المكان - الى البطل الابرز في الادب العربي . او بوسعي ان ادعي بانه النموذج الحي في ادبنا . هل هي مفارقة ان يكون الموت بطل الحياة او نموذجها في الحاضر العربي ؟ كلا ! لانه يحمل جوهر التحول ، المتهدل في الغداء ورفض الواقع المفروض والمخاطرة من اجل تجسيد الحلم . ان الشهيد وتجيده في حياتنا الحاضرة ليس ارضا دينيا فحسب . انه تواصل تاريخي وكفاح مستقبلي . كان النبي محمد بعد الشهداء بالجنة اذا سقطوا في معركة الدعوة . وكان المسيح نفسه شهيدا . والعربي وهو يقاتل غزاة العصر من الاتراك حتى الصهيونيين ، لا يذهب الى الموت لتسديد ضربة او طاعة لوعده . ان هذا الذهاب هو الاختيار الحر الوحيد - الذي بقي له - لتحقيق الانسجام الكلي بالارض وعلان جدارته بها . واول شروط هذه الجدارة هي الكرامة .

وقد توفرت معالم التطابق بين الموت والحياة على ارض فلسطين بشكل ناصع . انه ليس موت الفناء والنهاية . انه تجلي الانبعاث . الشمر خاصة يلتحم برمز الصليب الذي يتحول الى قطعة سلاح ، الصليب الفعّال . قطعة العذاب البشري الطويل التي انتقلت من مشاهدة المذبحة الى مقاومتها . وهكذا كان الموت الفلسطيني العربي سباقا للبحث عن الحياة ، او افتتاحية لبداية الانسان الجديد ، لان هذا الموت ليس حلا لمشكلة الحياة الشاقة ، لا هو موت ذهني ولا هو تاكل الاعضاء من الخمول والسأم . انه طريقة في السفر للبحث عن الجانب الحي في الحياة . او هو فداء لتخليص الانسان من الموت في الحياة الى الحياة في الموت .

وهذا ما اصاب الفلسطينيين ..

وقبل ان اوصل سرد قصتي ، دعوني ارسم جغرافية هذا البلد - المرأة ، التي تحولت بعذاب لا حدود له الى الحلم الممتاز لابطال وشخصيات وهموم الادب العربي الحديث . واحتلت - بعدما احتلوا - وسط اللوحة الدامية في ادبنا . وصارت عشيقته العشاق المذنبين ، وام الضحايا ، وقلب المكان ، وحاملة المسوت والانبعاث ، واخت المقاتلين والمدافعين ، وجارة السماء . ان نفهم الادب العربي الحديث - ادب مرحلة الانتقال ، ادب الرؤيا الحديثة ، الا اذا تعرفنا على هذه الجميلة الاسيرة : فلسطين . احفظوا هذه الاماكن في الفقرة التالية لتتعرف على واحدة من اجمل خرافات العالم: « ان الرقصة الجنسية التي يمارسها البحر الابيض المتوسط مع خاصرة جبل الكرمل ، في الوسط ، تنتهي بولادة بحيرة طبريا ، في الشمال . وهناك بحر سموه البحر الميت لانه ينفي ان يموت شيء في هذه الجنة لكي لا تصبح الحياة مملة . ومن شدة ما ازدحم الجليل الاعلسي بالفايات ، كان لا بد ان ترهن القدس على ان الصخور قادرة على امتلاك حيوية اللغة ، هذا هو وطني . »

هذا هو شكلها الجغرافي . ولكنها ليست لنا لانها مجرد بلاد جميلة الى حد القتل . انها لنا لانها ، ببساطة ، لنا . لان سفر تكويننا بدأ فيها ، ولاننا ولاننا فيها . قبل ربع قرن من الزمان تمكنت الصهيونية ، بالتواطؤ مع الانتداب البريطاني ، وبخيانة الرجعية العربية ، من اقتلاع شعب فلسطين من وطنه التاريخي والواقعي وشروده خارج هذا المكان . . خارج الانسانية . وما زال يعيش في الشتات وفي المخيمات . وما زالت اسلحة الموت الصهيونية والامبريالية تلاحقه في منفي البؤس للقضاء عليه ولابادته ، لصيانة امن الاحتلال الاسرائيلي من مطالبة الحق ، ولكي تشرع الصهيونية جريمتها الكبرى بمرور الوقت وبسيطرة الامر الواقع .

لم يحدث لشعب من شعوب اسيا وافريقيا مثل هذا البؤس ، مثل هذا المصير . ان شعب فلسطين يتعرض لعملية محاولة الغاء من الوجود ، ومن دفتر القانون الدولي ، ومن الضمير العالمي . كيف يحدث هذا في النصف الثاني من القرن العشرين ! في الوقت الذي يحق فيه الانسان الحق في الوصول الى القمر ، لا يعطي الحق للقدم الفلسطينية بان تخطأ ارضها في مسافة اقرب من بعد القلب عن العينين ؟ في حين تستصرخ الصهيونية الاسرائيلية كل يهود العالم في الهجرة الى فلسطين لتمارس مزيدا من صناعة الالغاء الفلسطيني . . ومن محطة الانطلاق على البلدان العربية لتوفير مزيد من التوسع الصهيوني على حساب شعوب المنطقة ، للحيلولة دون نهوض هذه الشعوب والسير في مسيرة الانسانية . لقد وضعت الامبريالية الامريكية كل منتجات عبقرية السلاح في ايدي الاحتلال الصهيوني لقمع شعوب المنطقة ولنعها من السيطرة على مصيرها وثرواتها ، فكانت اسرائيل ، بكل هذه المعاني ، هي الوجود الاستعماري الجديد الذي يقوم بخدمة حراسة المصالح الامبريالية ، وتقوم الامبريالية بدورها بمكافاته بتقديم مخالبا له ، وبتنظية احتلاله وتوسعه .

لقد انتظر الشعب الفلسطيني المشرد ، صعوة الضمير العالمي ليعيد اليه حقوقه القومية العادلة . انتظر في المخيمات وعلى ابواب وكالة الفوث وامام لجان حقوق الانسان ، وبكى طويلا امام الملفات الكبيرة التي تحمل وعودا باسترجاع حقوقه . وكان الوقت يمضي فتزداد الالة العسكرية الاسرائيلية جبروتا ، ويزداد المصير الفلسطيني بؤسا ، ويتكاثر عدد اللاجئين ، وتفتح ابواب فلسطين امام الهجرة الصهيونية التي لا تنتهي .

ليست هناك قضية اكثر عدالة من عدالة لجوء الفلسطينيين الى سلاح اكثر فعالية من فعالية الشكوى والانتظار السلبي لاسترجاع حقوقهم ووطنهم . هذه هي المادلة في هذا الزمان : من يملك حقا ولا يملك قوة لحماية الحق يبقى حقه مجانيا وفائسا . ومن يملك قوة دون حق يستلب حقا من الاخرين . ومنذ عشر سنين ، منذ اعلان الثورة الفلسطينية على البؤس الذي لا مثيل له في العالم الثالث ، وعلى الخطيئة الصهيونية التي لا مثيل لها في العصر ، والفلسطينيون يحمون الطريق الى وطنهم وحقوقهم بالقوة . وصار هذا الفلسطيني الكتهور الخارج من الخيمة الى خندق العدالة ، هو النموذج العربي الجديد لاعادة ترتيب عناصر المصير العربي وفقا لارادة الشعوب العربية . ومن هنا ، كانت الحالة الفلسطينية العربية الثائرة واحدة من انبل حالات الدفاع العادل في التاريخ البشري . وان مدى المشاركة الانسانية في تجذير الوعي العالمي بجوهر القضية الفلسطينية قد تحول الى احد المقاييس الاخلاقية العامة لاهلية الانتماء الى قيم الانسان . وان هذه المشاركة التي هي ، في الوقت ذاته ، اسهام الضمير في مقاومة الخطيئة ، تعتبر امتحانا قاسيا لمصادقية ما نوصل اليه الجهد البشري من اقرار قيم التعامل المتساوي بين الشعوب .

هذه الارض الفلسطينية العريقة التي كانت رحم انبل الدعوات

الى الحرية والعدل والسلام ، تستحق من الانسانية التي حظيت بعطاياها العظيمة ان تسدد بعضا من ائمن الديون . وان الكفاح المقدس فضلا من اجل ان يكون مصير هذه الارض بعض الامتداد لعطائنها التاريخي الكبير هو مهمة انسانية شاملة . لننظر الى صائب الصراع : انه ليس صراعا بين حدود حقيقتين كما يزعم بعض مثقفي الغرب الليبراليين ، لان الحق لا يصارع حقا . فاذا كان احد الطرفين حقا فلا بد من ان يكون الطرف الثاني باطلا . وهو ليس صراعا بين اديان وطوائف . انه صراع بين محاولة لاعادة التاريخ الى سسنة الظلمات والقفز على الفئ سنة من التطور التاريخي من جهة ، وصراع بين امتداد هذا التطور واحترام قوانين التاريخ والانسان . ان الصهيونية التي تمثل الطرف الاول من الصراع تحاول تجريد التكوين الانساني الشامل من مقوماته الفلسطينية ، وتسمى الى طرد الفلسطيني من الاقامة في صلب المنجزات الروحية والانسانية التي ابدعها الانسان عبر التاريخ ، بعدما اقتلعت من الارض وكسرت تجمعه وكيانه .

عمّ يدافع الصهيوني ؟ عن سيادة التعصب الديني والاستعمار في اشبع صوره . يدافع عن « حقه » في التنفس من رئات شعباخره . يدافع عن انانيته الضيقة في ان يكون وحده ، ويشترط حضوره بغياب الاخرين . ويدافع عن سابقة البناء العدواني على اشلاء شعوب فلسطين صاحب الحق والارض والتاريخ معا . اما الفلسطيني الذي عرض على اليهودي العيش معا في مجتمع ديمقراطي ، فانه يدافع عن قيم الحق والعدالة . ويقاقل من اجل ان يقضي على القضاء عليه . انه لا يحارب شعبا ، ولكنه يحارب خطيئة . انه لا يسمى للاحتلال ، ولكنه يموت من اجل ان يحرق وطنه ويحرق اعضاءه من وظيفة مفروضة عليه . انه يحارب الحرب التي جعلتها الصهيونية قانون التعامل الوحيد في منطقة الشرق العربي .

هذا هو الجوهر المصفي من الصراع الدائر منذ اكثر من ربع قرن بين الصهيونية المتحالفة مع الامبريالية وبين حركة التحرر العربية شقيقة حركات التحرر في العالم الثالث . ان جوهر الحركة التي نخوضها هو : هل يحق للانسان ان يكون في هذا العصر ، ام لا يكون ؟ وهل يحق للنهب والخطيئة والجريمة ان تكافأ ام تعاقب ؟ والكتابة العربية المعاصرة تأتي من هذا السؤال ومن هذه السخونة . وتقف فلسطين في صميم هذه الدائرة حتى تحولت الى الرمز الاكبر والى الدلالة الاهم ، وصار الانجراف في تيارها الشكل الاقوى لتجسد حلم الانسان العربي في اسم - في نموذج - في بطل . . في مكان ، حتى كادت فلسطين ان تختصر هذه المعاني جميعا .

اما زال بوسع الارادة الانسانية ان تتحرر وتنتصر على انتعاش الروح في التين الامبريالي ؟ اما زال القلب الانساني العالمي قادرا على تبني قضايا الانسان ؟ اما زال بوسع شمولية الضمير البشري ان تتسع لهذا الانتهاك الوحشي الممارس على ارض فلسطين ؟ هذه الاسئلة تأخذ الظاهرة الفلسطينية الى مساحتها الشمولية الواسعة ، فلا تكون حادثا ما يجري في منطقة ما في مرحلة ما من هذا العصر وهذه الكرة الارضية . تصبح قضية الانسان الذي يعنيه ان تمتحن فيه هذه الصفة .

ان فلسطين الارض - المعنى - الرمز - الدلالة - الصراع هي الحلم العربي الشامل . وقد تتساءلون : هل هي يوتوبيا العرب ؟ هي هي فردوسهم المفقود الذي اترى اديهم وشعرهم ؟

اننا نستمرى هذه المشابهة ونخشاه ، نستمرى لانها بلورة مطامح امة في اسم موحد ، لانها اقرار بالاسم الواحد للحلم الجماعي ، لانها مبايعة الضياع للرمز العظيم .

ونخشاه لان مصطلح الفردوس المفقود يتضمن تسليمنا بحالة

وجودية بلغت حد النهاية . ان علاقة الشعوب بفردوسها المفقود هي علاقة ارتباط بالماضي الذي يحده القدر : حين مجاني وبكاء للذكرى والعزاء ، وفرح بقدرة ماضية على انجاز جميل مضى . اما الفردوس الفلسطيني المفقود ، فانه علاقة بالماضي والحاضر والمستقبل . وما زالت ساحة الحاضر ملتبهة بالصراع الذي يقرر مدى دينامية العلاقة بين الماضي والمستقبل . لقد اندلعت اربع حروب على ساحة هذا الحاضر ، ونما الشعب الفلسطيني ونمى الصراع من اجل ان يكون هذا الحاضر عتبة للمستقبل لا سفن للماضي . ومن هنا ، فان فردوس العرب مفقود مؤقتا . انه محتل وقابل للاستعادة وممكن الاستعادة . ومن هنا ايضا تأتي حيوية الادب العربي وفاعليته في احتواء فلسطين له . لانه يحلم بجنة ممكنة ، ولا يحلم باوتوبيا .

بدون هذا الحلم الذي يستقطب امة ، لن يكون بوسعنا ، ان نفهم واقعية الادب العربي الحديث ، وبدون هذا الحلم لن يكون بوسعنا ان نفهم خلاص الادب العربي الحديث من الحوار حول نظريات الادب . هل يكون الادب للادب ام يكون ملتزما ؟ وغيرها من الاسئلة المفتعلة التي قذفها الينا ترف الثقافة الغربية الرسمية ، انا احلم ان انا ملتزم . وما دامت الكتابة هي احد تجليات الحلم فان المسألة تأخذ شكلها التالي : انا اكتب - اذن انا ملتزم .

هل نسأل بعد الان : ما هو دور الاديب في العالم العربي ؟ ما هي مهمة الاديب في العالم الثالث ؟

اظن ان حالة الفليان التي نعيشها والحالة التاريخية التي انتجنا ، وتتخذ شكلا اخر افضل حين ننتجها كلاما ، ونؤسسها كتابة تحول التساؤل الى اجابة . انا نفصح .. ندين . نقاوم ، ونقيم علاقة انسانية .

ان بلادنا تقدم ادبها ، وادبها يقدمها اليكم ، وهكذا نعقد لقاء انساني . بالسماوات الوطنية الخاصة لاداب شعوبنا ، نقدم مساهماتنا المتفاوتة في الجوهر الانساني الواحد . ان شعوب ، اسيا وافريقيا الناهضة والتي في طريقها الى النهوض تشكل ، عبر صراع التحرر والحرية ، ادبها ذات المذاق الحار . ولعل هذه الاداب تقدم للعصر النهك بالفوارق الشاسعة من مستويات التطور وعدا جيلا بفاعلية جديدة للعلاقات بين الادب والواقع ، بعدما اصاب هذه العلاقات شيء من الركود بسبب سيطرة قيم اداب الاستهلاك والسام وتعكير العلاقة بين الانسان والاشياء ، وكان شكلا من اشكال الاحتلال الادبي المرافق لسيطرة النفوذ الامبريالي .

ولعل حميمية - اداب شعوبنا القادمة الى الحياة من كهوف الاقتراب والقهر والبؤس تحمل حداثة الفرح البشري الجديد في لقائه بالحرية ، وتقدم اضافة غنية الى الادب الانساني الشامل ، وبديلا حيويا لاداب نزع الصفة الانسانية عن سلوك الانسان في نماذج تقديس العنف وقياس الجدارة بمعايير القوة والعنف .

اننا لا ننفي من اجل النفي ، ولكننا نواصل البناء على اسس التقاليد الانسانية الحية للادب ، والقيم الانسانية المطلقة . اننا لا نؤسس على الفراغ او التقليد ، ولكننا نمو على الجذور ، جنورنا في امدادها بالتاريخ . ولا نطلق ابوابنا امام الرياح ، ولكننا لا نترك الريح تقتلع جنورنا . لقد ظلم هذا الشرق كثيرا ، وما زال معرضا للظلم . لقد ظلم الى درجة التشكيك بقدرته على المساهمة في الثقافة العالمية . وصارت الثقافة الرأسمالية النموذج السائد . ولكننا ماثون في استرداد الثقة بالنفس ، وفي تطوير ادابنا الوطنية لتأخذ المكان الذي تستحق من منجزات الابداع الانساني الشامل .

ها نحن نحقق الحضور في ذاتنا ، بالالتحام في نضال شعوبنا . وفي هذا الحضور الوطني نؤسس الخطوات الاولى في الحضور العالمي . لقد عاد العرب الى العالم بعد عملية نفي طويلة مارستها الاشكال والراحل المختلفة من الاستعمار . وما زالت شعوبنا تكبح لتحرير نفسها واوطانها من الداخل والخارج ، لتخلق الفرصة الاكمل لتعمير ثقافتها وتطورها الاجتماعي . اننا في بداية الحضور، وبقدر ما تتعمق الرؤيا الثورية والممارسة الثورية فينا بقدر ما تقترب من الحضور والوصول .

ويبدو ان القضية واحدة . ان مساهمة كل شعب في الثقافة العالمية تأتي من تجربة ثقافته القومية التي يمتد منها الجوهر ، ومن هنا ، فان ما يعيق تطور ثقافة شعب ما نتيجة عقبات التطور الاجتماعي لهذا الشعب هو ذاته الذي يعيق اثناء الثقافة العالمية ووحدها . ويبدو ان الطريق ما زال طويلا لبلوغ هذه الوحدة لان الثورة لم تحقق حلمها ، بمد ، في ان تكون عالمية . والقوى الجديدة، قوى الثورة الكفيلة بانتاج ثقافة كونية ، لم تبلغ في البلدان كلها السيطرة على امكانياتها العظيمة . ومن هنا ، ما زالت الفروق باهظة . ومن هنا ايضا، يبقى دور الاديب كبيرا في عالمنا، لانه يقرب مناطق العالم في الحلم الانساني المتعدد الاشكال والمتوحد في الجوهر .

ما زال الطريق طويلا . وما زال دورنا كبيرا . وما زالت شعوب اسيا وافريقيا تقدم نضرة الوعد بالانعاش ، وهي على طريق الحضور .

بيروت

صدر حديثا

المجتمع المصري والجيش

تأليف
الدكتور أنور عبد الملك

ترجمة
محمود حنّاد وميخائيل خوري

كان لا بد من تناول الثورة المصرية في طورها المعاصر ، وهي ملتبهة ، متناقضة ، صاخبة ، متأزمة ، طبيعية ، وذلك من وجهة نظر ارضيتها وطنية ، ومنهجها وطني ، ووجهتها وطنية ، وهي في الآن نفسه اشتراكية ، فكان هذا الكتاب الذي يؤرخ لثورة يوليو ١٩٥٢ من منظور الخصوصية المصرية والدائرة العربية، ودور الدولة ورسالة الجماهير الشعبية ، والاسلام السياسي والماركسية ، ورأسمالية الدولة والاشتراكية، والامة والزعيم .

دار الطليعة - بيروت -

ص.ب ١١٨١٣